الجِهَاتُ الأَربعـةُ

وتَنْظُرُ مِن عَلٍ عِندَ القريةِ العالية الشامخة (سكوفيا) إنها (سقفُ الزوية) ، تقعُ وسط بلادٍ كالجنّةِ في جمالها ، سماءٌ وماءٌ وهواءٌ عليلٌ ، حقولٌ وبساتينٌ وطيور تغدو وتروحُ .

فإذا يَمَّمْتَ وجْهَكَ شرقاً بَدَتْ عليك آفاقٌ عند مشرق الشمسِ وهي تُطِلُّ علىٰ الدنيا مارَّةً بأرض الشام ، من سهولٍ وتلالٍ حتىٰ تصلَ إليها فَتُثِيرُها بالضياءِ وتتجاوزُها فتمرُّ فوق سطحِ المياهِ العذبةِ من بحيرةِ طبريا ، في الغور الممتلىء بالأسرار وقصصِ الأنباء عبرَ الأَيّامِ الغابرة في عَهْدِ السّيدِ المسيحِ وهو يغتسل في شاطئها مع تلاميذٍ وحواريين آمنوا برسالته ، ثُمَّ تَتَجاوَزُها إِلىٰ أرضِ المعارك باليرموكِ وحطين وعين جالوتَ في فلسطين الحبيبة ،وبها هَزَمَ المسلمون العربُ جيوشَ الرومِ والتَّتارِ والصليبيين ، ويَنْتَشِرُ الضِّيّاءُ علىٰ جبل الناصرة (طوبار) وديره الأبيض اللامع فوقَه ويصلُ بسرعةٍ حتىٰ البحر عند حيفا وعكا فينيرُ شواطئها علىٰ بحْرٍ زاخِرٍ بالجمالِ والأسرار .

وبِنَظْرَةٍ للشمالِ يَبْدو لك جبلُ الشيخِ بثوبه الأبيض وهيبته

وَوَقارِه ، وإلىٰ الغربِ منه جبالٌ ووديانٌ ونهرٌ مبارك غزيرٌ ، وَمنابعُه من سلسلةِ جبال حرمونَ حتىٰ مدينة صفد في فلسطين الحبيبة بِغاباتها ونُسُورِها السابحةِ في فضاءٍ رَحْبٍ واسعٍ .

وَتُطِلُّ من سقفِ الزويَّةِ إلىٰ الجنوب فترىٰ سهولاً وَوِدياناً وقُرىٰ متناثرةً ، حتىٰ مدينة كفرسوم بجبال عجلون وأربد في شرق الأردن وكأنها دُرَرٌ وَهَبَها رَبُّ العالمين لعبادِه المؤمنين .

وهذه الأشجارُ الباسقة في بَساتين التَّلَّةِ العاليةِ فتُحيطُ بها كالسّوارِ بالمعصم ، وتتطاوَلُ حتى تَلثُمَ أطرافَ السُّحُبِ الآتيةِ من فوق بحيرةٍ صافيةٍ عند جبال الجليلِ الراسيةِ في فلسطين الغالية ، وهي تَستَجْدي منها مطراً ليغسِلَ أوراقَها ويسقي جذورها ويملأ الجداولَ والسواقي والآبار ، فيصنعُ الحياةَ وينبتُ الزرعَ ويُحيي الضِرعَ ويُخرِجُ الزهرَ والريحان فوقَ الأَفْنَانِ .

وتَهبُّ عليها الرياحُ النّديَّةُ محمَّلَةً بالضبابِ وعَبَقِ الحياةِ ، ويُرفرِفُ الطيرُ فوقَها كالشاهينِ والنّسرِ والصّقرِ واللقّلاقِ وهو يحوم في سمائها بأسرابٍ منتظمة وراء بعضها ، وتحطُّ في حقولٍ خضراء باحثةٍ عن عُشْبها المفضَّلِ الذي تجدُهُ في هذه البلادِ الزاخِرَةِ بأنواعِ النباتاتِ والأزاهيرِ . والمياهُ المتدفِقَةُ في الوديانِ والسيولِ كوادي السمك والبالوعَةِ والمسيلِ ، وَحَبَّاتُ المطرِ تتلاحَقُ فتملأ الغُدرانَ والآبار وتروي الأرضَ فيفرحُ الفلاحُ ، إنها سنواتٌ من الخيرِ الذي وَعدَ بها الله عبادَه الطّائِعين : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

كانت حَبّاتُ المطرِ تغسلُ وجوه الرجال وهم مجتمعون في ساحة القرية ، فتروي زروعهم التي في حقولهم إنها تبعث الحياةَ في نفوسهم ، وأَمَلِهم بموسمٍ خيِّرٍ ومِعطاء .

هيَّأَ الرجالُ الأرض وأزاحوا منها الحجارة والأعشاب الضارة وزرعوها شجراً وخُضْرَةً وسمَّدوها وصانوا ما غَرَسوا ، جعلوها جِناناً تستهوي الإنسان والحيوان والطير .

إنهم أحفادُ رجالٍ عِظامٍ قَدِموا إلىٰ هذه التَّلةِ الموحِشَةِ المهجورةِ ، فصنعوا منها مُنْتَجَعاً وَمَهوىً لكلِّ راغبٍ بالعيشِ الرّغيدِ والطبيعةِ الجميلة والهواء العليل ، فزرعوا فيها أشجارَ الزيتون واللوز والرمان والتينِ والعنبِ ، ولكلِّ أُسرةٍ كَرْمٌ وبوابَةٌ ، وفيه القُطوفُ الدانيةُ والأغصانُ الحانية بالأَكوازِ الشّهيَّةِ الهانِئَةِ ، إنها البلدةُ العالية «سكوفيا» كان الغادي والرّائحُ يأخذُ نَصيبَهُ من ثمارها وصَبَّارِها بألوانِهِ الصُّفْرِ والحُمرِ والخُضرِ ، وغالباً ما يُقَدَّمُ له الزّادُ والفاكهةُ في مضافاتِ القرية المفتوحةِ لكلِّ طارقٍ .

أما سكان البطيحةِ ووادي السمك فَيَجِدونَها مَحَطَّةً إذا أظلمَ الليلُ وطريقهم طويلٌ ومحفوفٌ بالمخاطِرِ ، فَيَباتون مُكَرَّمين مُعَزَّزين عندَ أُناسٍ يعدون الضّيافةَ شيمةً تعوَّدوها من آبائهم وجدُودِهم .

وقد زارها المستكشِفُ الألماني غوتلب شومخر عام ١٨٨٢م ،

وكتب عنها بأنها قرية كبيرة مزدهرة تقع على نقطةٍ مرتفعةٍ في الزوية الغربيَّةِ ، تُشرف علىٰ مناظرَ رائعةٍ فوق بحيرةِ طبرية ، وكانت تضم حوالي ٧٠ داراً وفيها ٤٠٠ ساكناً ، وتنقسم القرية إلىٰ قسمين شرقي وغربي علىٰ تلَّةٍ مسطحةٍ وحولها منطقة خصيبةٌ وفيها كهوفٌ وآبارٌ ، وتصلُ إليها بدرجات ، وتوجد فيها أساساتٌ حجريَّةٌ قديمةٌ لمبنىٰ مستطيل الشكل قرب المقبرة ويدعى القلعة ، وفيها عدةُ خزاناتٍ مَرْدومَةٍ وتوجد صُلبانٌ ذات خطوطٍ متعامدةٍ ، وكِتاباتٍ نُحاسيّةٍ .

وقد وضَعت فرنسا فوقها إِشارَةً حَديديَّةً كبيرة تظهر من مسافاتٍ بعيدة ، كُتِبَ عليها أرقامٌ وعباراتٍ تدُلُّ علىٰ مصطلحاتٍ تُشيرُ إِلىٰ ارتفاعاتها وموقِعها في الحَارةِ الشّرقيةِ .

وهي تَبْدو من بعيد وأنها أعلىٰ منطقةٍ ونقطةٍ في مُحيطِها حيث نُصِبَتْ هذه الإشارة ، ويصل ارتفاعها لأكثر من ٥٠٠م فوق سطح البحر ، وإذا اعتبرنا أن انخفاض بحيرة طبريا عن سطح البحر ٢٠٨ م ، فيكون ارتفاع قرية سكوفيا عن مياه البحيرة حوالي ٧١٥ م ، وهذا يجعل الطريق إليها يمرُّ في وديانٍ سحيقةٍ متعرِّجةٍ .

* * *